

## ألف لام ميم

من سور القرآن الكريم ، تسع وعشرون تبدأ بحروف مفردة ، هي :  
الألف واللام والميم والصاد والراء والكاف والحاء والياء والعين والطاء والسين  
والحاء والقاف والنون .

أما هذه السور فهي : البقرة ثم آل عمران فالأعراف فيونس فهود  
فيوسف فالرعد فإبراهيم فالنجم فطه فالشعراء فالنمل فالقصص  
فالعنكبوت فالروم فلقمان فالسجدة فسورة (يس) فص- ، فسورة غافر  
ثم سورة فصلت فالشورى فالزخرف فالذخا فالحاثية فالأحقاف فسورة  
(ق) فالقلم .

وتتوالى هذه السور في ثلاثة مواضع : فأولى تلك السور وثانيها هي  
البقرة وآل عمران في بداية المصحف الشريف ، ثم تأتي سورة الأعراف  
وهي السورة السابعة وحدها ، ثم تتوالى على التتابع في السور العاشرة  
والحادية عشرة فالثانية عشرة فالثالثة عشرة فالرابعة عشرة فالخامسة عشرة ،  
ثم ينقطع تواليها حتى سورة مريم التاسعة عشرة لتليها سورة طه ثم يبدأ  
التتابع ثانية واضحاً ومتصلاً في موضعين : أولهما يبدأ بسورة الشعراء  
أى السورة السادسة والعشرين ، فتليها السورة السابعة والعشرون والثامنة  
والعشرون فالتاسعة والعشرون فالثلثون فالحادية والثلاثون والثانية والثلاثون ،  
ثم ينقطع التتابع ليستأنف بسورة يس وهي السادسة والثلاثون وسورة (ص)  
وهي الثامنة والثلاثون ، ليبدأ التتابع ثانية من السورة الأربعين إلى السورة  
السادسة والأربعين بلا انقطاع . ثم تأتي كل من سورتي (ق) وهي  
الخمسون ، و(القلم) وهي الثامنة والستون ، كل في موضع كما ترى .

وقد تحدث بطبيعة الحال جميع المفسرين القدامى والمحدثين ،  
عن هذه الحروف ، وقد اخترنا أن ننقل بصدها بعض ما أورده الإمام

أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي في مدارك التنزيل  
وحقائق التأويل قال :

« ألم ونظائرهما أسماء ، مسمياتها الحروف المبسوطة التي منها ركبت  
الكلم ، فالقاف تدل على أول حروف ( قال ) والألف تدل على أوسطها  
واللام تدل على الحرف الأخير منها . وكذلك ما أشبهها ، ثم الجمهور  
على أنها أسماء السور ، وقال ابن عباس رضى الله عنهما : أقسم الله  
بهذه الحروف . وقال ابن مسعود رضى الله عنه : إنها اسم الله الأعظم .  
وقيل إنها من المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله ، وما سميت معجمة  
إلا لإعجامها وإبهامها .

« وقيل ورود هذه الأسماء على نمط التصدير كالإيقاظ لمن تحدى  
بالقرآن كالتحريك للنظر في أن المتلو عليهم قد عجزوا عنه عن آخرهم ،  
كلام منظوم من عين ما ينظمون من كلامهم ، ليؤديهم النظر إلى أن  
يستيقنوا أنه لم تتساقط مقدرتهم دونه ، ولم يظهر عجزهم عن أن يأتوا  
بمثله بعد المراجعات المتطاولة ، وهم أمراء الكلام ، إلا لأنه ليس من  
كلام البشر ، وأنه كلام خالق القوى والقدر . وقيل إنما وردت السور  
ليكون أول ما يقرع الأسماع مستقلاً بوجه من الإغراب وتقدمه من  
دلائل الإعجاز ، وذلك أن النطق بالحروف أنفسها كانت العرب فيه  
مستوية الأقدام ، الأميون وأهل الكتاب ، بخلاف النطق بأسماء  
الحروف ، فإنه كان مختصاً بمن خط وقرأ ، وخالط أهل الكتاب ،  
وتعلم منها ، وكان مستبعداً من الأمي التكلم بها استبعاد الخط والتلاوة ،  
مع اشتهاؤه أنه لم يكن ممن اقتبس شيئاً من أهله ، حكم الأفاضل  
المذكورة في القرآن ، التي لم تكن قریش ومن يضاهيهم في شيء من  
الإحاطة بها ، وأن ذلك من جهة الوحي ، وشاهد على نبوته » .

ثم أورد النسفي حقائق عن هذه الأحرف فقال :  
« واعلم أن المذكور في الفواتح نصف أسماء حروف المعجم ،

وهي الألف واللام والميم والصاد والراء ، والكاف والحاء والياء والعين والطاء والسين والحاء والقاف والنون في تسع وعشرين سورة على عدد حروف المعجم ، وهي مشتملة على أنصاف أجناس الحروف ، فمن المهموسة نصفها : الصاد والكاف والحاء والسين والحاء . ومن المجهورة نصفها : الألف واللام والميم والراء والعين والطاء والقاف والياء والنون . ومن الشديدة نصفها : الألف والكاف والطاء والقاف . ومن الرخوة نصفها : اللام والميم والراء والصاد والحاء والسين والعين والحاء والياء . ومن المطبقة نصفها : الصاد والطاء . ومن المنفتحة نصفها : الألف واللام والميم والراء والكاف والحاء والعين والسين والحاء والقاف والنون . ومن حروف القلقلة نصفها : القاف والطاء .

ثم قال : واختلفت أعداد حروفها : مثل ص ، ق ، ن ، طه ، طس ، يس ، حم ، ألم ، الر ، طسم ، المص ، المر ، كهيعص ، حم عسق ، فوردت على حرف وحرفين وثلاثة وأربعة وخمسة ، كعادة افتنانهم في الكلام . وكما أن بنيته على حرف وحرفين إلى خمسة أحرف سلك في الفواتح هذا المسلك .

وما أورده النسفي في جملة ، هو ما ذهب إليه المفسرون ، وقد جمع القرطبي هذه الأقوال على نسق آخر ، ننقل منه :

قال عامر الشعبي وسفيان الثوري وجماعة من المحدثين هي سر الله في القرآن ، والله في كل كتاب من كتبه سر ، فهي من المتشابه الذي تفرد الله بعلمه ، ولا يجب أن يتكلم فيها ، ولكن يؤمن بها ، ونقرؤها كما جاءت . وروى هذا القول عن أبي بكر الصديق وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما ، وذكر عن عمر وعثمان وابن مسعود أنهم قالوا : الحروف المقطعة من المكتوم الذي لا يفسر . وقال أبو حاتم لم نجد الحروف المقطعة إلا في أوائل السور ، ولا ندري ما أراد الله جل وعز بها .

ثم قال القرطبي : عن الربيع بن خييم قال : إن الله تعالى أنزل هذا

القرآن فاستأثر بعلم ما شاء وأطلعكم على ما شاء ، فأما ما استأثر به فلستم  
بنائليه ، فلا تسألوا عنه ، أما الذى أطلعكم عليه فهو الذى تسألون عنه  
وتخبرون به ، وما بكل القرآن تعلمون : ولا بكل ما تعلمون تعملون .

ثم قال القرطبي : وقال جمع من العلماء كبير : بل يجب أن  
نتكلم فيها ، ونلتمس الفوائد تحتها ، والمعاني التى تتخرج عليها .

ثم قال إن ابن عباس ذهب إلى أنها اسم الله الأعظم ، إلا أنا  
لا نعرف تأليفه منها . وقال قطرب والقراء وغيرهما . هى إشارة إلى حروف  
الهجاء أعلم الله بها العرب حين تحداهم بالقرآن وأنه مؤتلف من حروف  
هى التى منها بناء كلامهم . قال قطرب : كانوا ينفرون من استماع  
القرآن فلما سمعوا « ألم » و « المص » استنكروا هذا اللفظ ، فلما أنصتوا  
له ، صلى الله عليه وسلم ، أقبل عليهم القرآن المؤتلف ليثبته فى أسماعهم  
وآذانهم ، ويقوم عليهم الحجة وقال جماعة : هى حروف دالة على  
أسماء أخذت منها ، وحذفت بقيتها كقول ابن عباس وغيره : الألف  
من الله ، واللام من جبريل ، والميم من محمد صلى الله عليه وسلم .  
وقالوا : الألف مفتاح اسمه الله واللام مفتاح اسمه لطيف ، والميم مفتاح  
اسمه مجيد . وروى عن ابن عباس قوله : « ألم » أنا الله أعلم . و « الر »  
أنا الله أرى و « المص » أنا الله أفصل .

وقال القرطبي : من عادة العرب التكلّم بالحروف المقطعة ومن ذلك  
قول الشاعر :

أراد فقالت وقفت ، كما قال عليه السلام ، « كفى بالسيف شاه معناه  
شافياً .

وقال زيد بن أسلم : هى أسماء للسور . وقال الكلبي هى أقسام  
أقسام الله تعالى بها لشرفها وفضلها وهى من أسمائه عن ابن عباس أيضاً .  
وردّ بعض العلماء هذا القول فقالوا : لا يصح أن يكون قسماً لأن  
القسم معقود على حروف مثل : إن ، وقد ، ولقد ، وما ، ولم يوجد هاهنا

حرف من هذه الحروف . والجواب أن يقال : موضع القسم قوله تعالى : لا ريب فيه ، فلو أن إنساناً حلف بالله هذا الكتاب لا ريب فيه ، لكان الكلام سويّاً ، وتكون « لا » جواب القسم فثبت أن قول الكلبي وما روى عن ابن عباس سديد صحيح .

ثم قال القرطبي : « فإن قيل ما الحكمة في القسم من الله تعالى ، وكان القوم في ذلك الزمان على صفتين : مصدق ومكذب ، فالمصدق يصدق بغير قسم ، والمكذب لا يصدق مع القسم . قيل القرآن نزل بلغة العرب ، والعرب إذا أراد بعضهم أن يؤكد كلامه أقسم على كلامه . والله تعالى أراد أن يؤكد عليهم الحجة فأقسم أن القرآن من عنده . وقال بعضهم ( ألم ) أى أنزلت عليك هذا الكتاب . من اللوح المحفوظ . وقال قتادة في قوله ( ألم ) قال اسم من أسماء القرآن ، وروى عن الترمذى أن الله أودع جميع ما في تلك السورة من الأحكام ، والقصاص في الحروف التى ذكرها في السورة ، ولا يعرف ذلك إلا نبي أو ولى ، ثم بين ذلك في جميع السورة ، ليفقه الناس . »

وجمع الطبرى هذه الأقوال وغيرها ونقلها عنه مجملة :  
 عن قتادة : « الم » اسم من أسماء القرآن . هو مذهب كل من مجاهد وابن جريح .

وعن مجاهد أيضاً : « الم فواتح يفتح الله بها القرآن » .

وعن زيد بن أسامة : هى أسماء السور .

وعن ابن عباس : هى اسم الله الأعظم .

وعن ابن عباس أيضاً : هو قسم أقسم الله به ، وهو من أسماء الله .

وعن ابن عباس كذلك وعن سعيد بن جبير وعن ابن مسعود :

هى حروف مقطعة من أسماء وأفعال : كل حرف من ذلك لمعنى غير معنى الحرف الآخر .

وعن مجاهد فواتح الصور كلها « ق » و « ص » و « حم » و « طسم »

وه « أ ل ر » وغير ذلك هجاء موضوع .

وعن الربيع بن أنس : هي حروف يشتمل كل حرف منها على معان شتى مختلفة فالألف مفتاح اسمه « الله » ، واللام مفتاح اسمه « لطيف » ، والميم مفتاح اسمه « مجيد » . الألف آلاء الله ، واللام لطفه ، والميم مجده . واللام ثلاثون سنة ، والميم أربعون سنة .

وقال بعضهم هي حروف الجمل . وقال الطبرى : كرهنا ذكر الذى حكى عنه ذلك ، إذ كان الذى رواه ممن لا يعتمد على روايته .

وجاء فى التفسير الذى نشرته مجلة منبر الإسلام :

« هذه حروف ابتدأ بها الله سبحانه وتعالى ، ليشير بها إلى إعجاز القرآن الكريم المؤلف من حروف كالحروف التى يؤلف منها العرب كلامهم ، ومع ذلك عجزوا عن الإتيان بمثل القرآن ، وهى مع ذلك تنطوى على تنبيه للاستماع لتمييز جرسها » .

وجاء فى التفسير الوسيط :

( ألم ) افتتح الله بعض سور القرآن بأسماء بعض الحروف وعددها ثمانية وسبعون حرفاً فى جملة السور ، وهى تكرر لأربعة عشر حرفاً ، فى أوائل تسع وعشرين سورة ، ومنها سورة البقرة ، وأولها ( ألم ) وقد ذهب كثير من السلف إلى أن معانى هذه الحروف وأغراضها سر من الأسرار التى استأثر الله تعالى بعلمها ، فتكون من المتشابه الذى لا يعلم تأويله إلا الله .

« أما علماء الخلف فقد حاولوا ببيان المقصود منها ، لأن القرآن جاء بلغة العرب ، ليفهموه . ومن أحسن ما قيل فى ذلك أنها تشير إلى إعجاز القرآن لأنه مكون من كلمات أساسها هذه الحروف التى تنظمون منها أيها العرب كلامكم ، ومع ذلك عجزتم عن أن تأتوا بمثله ، وفيكم الفصحاء والبلغاء ، فإذا جاء به النبي الأسمى ، فالله تعالى هو الذى أنزله ، ولم يأت به من عند نفسه ، لأنه مثلكم فى الفصاحة ، فإذا

( ٦ )

عجزتم عن الإتيان بمثله ، فهو مثلكم في ذلك ، فالقرآن فوق مقدرة البشر جميعاً . ومن أحسن ما قيل أيضاً أن المشركين قد تضافروا على ألا يسمعوا القرآن ( وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه ، لعلكم تغلبون ) .

وجاء في تفسير المنار : ( ألم ) هو وأمثاله أسماء للسور المبتدأة به ، ولا يضر وضع اسم الواحد ( الم ) لعدة سور لأنه من المشترك الذي يعين معناه اتصاله بمسماه ، وحكمة التسمية والاختلاف في ( ألم ) و ( المص ) نفوض الأمر منها إلى المسمى سبحانه وتعالى ، ويسعنا في ذلك ما وسع صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وتابعيهم . وليس من الدين في شيء أن يتنطع متنطع فيخترع ما يشاء من العلل التي قلما يسلم مخترعها من الزلل ، وقد أسند التفسير هذا الرأي للشيخ محمد عبده .

ونحب أن نورد بعض ما لا حظناه بصدده هذه الحروف ، وموضعها في القرآن الكريم .

أولاً : أن هذه الحروف المفردة ، لا تأتي إلا في أوائل السور .  
ثانياً : أنها لا ترد في أوائل السور إلا مقرونة بذكر القرآن ، وبتأكيد من الله تعالى أنه هو الذي نزله على رسوله بالحق .

ثالثاً : استثناء من هذه القاعدة ، وردت هذه الألفاظ ، في موضعين اثنين فقط من القرآن الكريم ، غير مقرونة بذكره أو بآياته ، وذلك في سورة العنكبوت : ( ألم ، أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ) ، وفي سورة الروم : ( ألم ، غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين ) .

رابعاً : لم يذكر القرآن الكريم أو آياته في أوائل سور القرآن البالغ عددها أربع عشرة سورة ومائة ، غير مسبوق بهذه الألفاظ المفردة إلا في سورتي الفرقان والزمرة التي استفتحت بقوله تعالى : ( تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم . إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق ،

فاعبد الله مُخلصاً له الدين) .

وقد وقعت سورة « الزمر » ، بين سورتين بدأتنا بالألفاظ المفردة ،  
مقرونة بذكر القرآن الكريم .

خامساً : لم يرد قسم في القرآن من الله تعالى إلا في أوائل السور ،  
من مثل ( والعاديات ضبحاً ) ( والضحى والليل ) ، ( والليل إذا يغشى ) ،  
( والشمس وضحاها ) ، ( لا أقسم بهذا البلد ) ، « والفجر وليال عشر ) ،  
( والسماء والطارق ) ، ( والسماء ذات البروج ) ( والنازعات غرقاً ) ،  
( والمرسلات عرفاً ) ، ( لا أقسم بيوم القيامة ) .

نتقل بعد ذلك إلى التأمل في منهج القرآن ، في القسم ، فهو  
يقسم بأشياء تبدو لنا صغيرة الشأن قليلة القيمة ، كالتين والزيتون ،  
أو كالعاديات أو الخيل أو بيلد كمكة ، أو بالظواهر الطبيعية كالليل  
والفجر ، والشمس والقمر ، وبالرياح وبالنجوم ومواقعها وهو قسم يقول  
الله تعالى عنه : ( وإنه لقسم لو تعلمون عظيم ) .

وغاية القرآن الكريم من القسم بهذه الأشياء الصغيرة الشأن ، وبهذه  
الظواهر الطبيعية التي هي أثر من آثار قدرة الله ، وبالنجوم  
والكواكب التي هي من مخلوقاته عز وجل أن يلفت نظر الإنسان إليها  
للتأمل فيها ، والنظر في النظام الذي تكون جزءاً منه ، ليزداد علماً  
وحكمة وفهماً لأحكام القرآن ، ولأصول الدين ، لأن الدين أساسه  
التسليم بقدرة الله ، وبعجز الإنسان أمامه وبم حاجته إلى حمايته ورعايته  
سبحانه وتعالى ، وأنه بار بعباده رءوف بهم ، وأن كل ما يجرى عليهم  
مما يبدو لهم منطوياً على الخير أو الشر يمكن أن يزيدهم قوة ، لو  
ازدادوا فهماً لأحكام هذا الكون ونظامه ، وإدراكاً لسننه الثابتة التي  
لا تتحول ولا تتبدل .

وقد علمنا الله تعالى في كتابه : ( إن الله لا يستحي أن يضرب  
مثلاً ما بعوضة فما فوقها ) ، وقد ضرب لنا فعلاً مثلاً بالذبابة وخلقها فقال :

( إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ) .

فالقسم بالحروف لا ينبو عن أسلوب القرآن البياني ، ولا منهجه الفكري ، بل ينسق معهما وينمق . وهو في المواضع التي وقع فيها مفهوم تماماً بطبيعة الحال ، لأنه يتحدث عن القرآن الذي هو كتاب ، ولأنه كتاب فهو يتكون من ألفاظ ، تتكون بدورها من حروف . فمادة الكتاب هي الحرف به يبدأ ومنه ينشأ ، وتنشأ أجزاءه الصغرى والكبرى ، وعن طريقه تتدفق الأفكار ، وتنتقل من القائل إلى السامع ، ومن المخاطب إلى المخاطب به . والدعوة إلى تأمل الأشياء الصغيرة التي هي أصل الأشياء الكبيرة ، هي رسالة الإسلام العقلية والروحية معاً . فهو يتحدث كثيراً عن الذرة ، ويلفت النظر إلى ( لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ) ، ( وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ) ، ( قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ) ، ( إن الله لا يظلم مثقال ذرة ) ، ( فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ) ، ( وإن تلك مثقال حبة من خردل أتينا بها ) ، ( إن تلك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله ) .

فليس إذن عند الله شيء حقير مهما صغر ، ولا يخرج عن نظامه أمر مهما بدا تافهاً ، قليل الشأن ، بل إن الله يذكر الإنسان المرة بعد المرة ، بأنه من ( ماء مهين ) وبأنه ( خلق من صلصال من طين ) بل إن الشيطان طرد من رحمة الله ، وأقصى عن الجنة لأنه لم يفهم حكمة الله ، وأبى أن يفتح عقله لنوره ، إذ رفض أن يسجد لآدم ، لمجرد أن ( آدم ) خلق من طين ، واعتبر نفسه خيراً منه لأنه خلق من نار : ( قال أسجد لمن خلقت طيناً ؟ ) ، ( قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه ، خلقتني من نار ، وخلقته من طين ) .

فالتأمل في الصغير والضئيل من الأمور ، أو ما يبدو صغيراً وضئيلاً ، من أساليب القرآن ومناهجه في تعليم البشر ، وتعويدهم احترام مخلوقات الله ، واستظهار قدرته ، وعظمته في أصغر ما خلق : ( ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ) ، ( ألم نخلقكم من ماء مهين ؟ ) .

فإذا كان القرآن قد وجه الخطاب إلى الكفار والمشركين ، والمسلمين والمؤمنين : في شأن القرآن الكريم ، في كونه كتاب الله ، وكونه منزلاً على رسوله ، ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، وليحتمل في سبيل ذلك ، أن ينصرفوا عن سماعه وأن يشكوا في صدقه ، وأن يلغوا فيه ، فهذا موضع يجب فيه الدعوة للتأمل في أصل هذا الكتاب ، وهذا التأمل سيستدرج المتأمل إلى التفكير في الكتب عموماً ، ما سبقت القرآن ، وما خطه الناس بأيديهم ، وسينتهي به التفكير إلى أن هذه الكتب ، تتكون من حروف صغيرة ، تنشأ منها جمل ، فماذا تكون هذه الحروف ؟ هي علامات لأصوات تصدر عن الإنسان ، ومثال هذه الأحرف : الألف واللام والميم والراء والهاء والصاد . إلخ . فهل يعرف العرب هذه الحروف ؟ ثم هل يدرون أنها قادرة على أن تنقل الفكر من رأس إلى رأس ، ثم من مكان إلى مكان ، ثم من زمان إلى زمان ، ثم من أمة إلى أمة . فإذاً هي أداة خطيرة وفعالة ، وليست كما تبدو علامات لا قيمة لها ، ولا وزن . بل إنها جدية بأن نتعلمها ، وبأن نعلمها أولادنا . وأخيراً هي جدية بأن نفكر فيمن خلق لنا هذه الحروف ، وأجراها أصواتاً على ألسنتنا ، وجعلنا قادرين على التخاطب بها . فإذا كان الله هو الذي تفضل علينا بهذا كله ، فهذا الخالق العظيم ، يقسم لنا بهذه الحروف الصغيرة ، بأنه كما خلقها ، وكما علمنا إياها ، خلق منها هذا الكتاب .

ولذلك جاءت هذه الأحرف ، في أوائل السور ، متنوعة ، تصدر من الخلق ، وتصدر عن الشفتين ، مهموسة ومجهورة ، خفيفة وشديدة إلى آخر ما قاله الإمام النسفي .

وقد يكون الإنسان قادراً هلي أن يتصور أن في وسع كتاب أن ينقل الناس من حال إلى حال ، ولكن أن يكون الحرف الصغير قادراً على هذا ، فأمر يحتاج إلى تنبيه وإيقاظ ، وإلى ما يشبه الصدمة ، فإذا أقسم الله العظيم ، خالق كل شيء بالحرف فإن هذا القسم إذا فهمناه ، بفتح لنا عالمًا من التأمّلات في هذا الكون الرحيب الفسيح الذي خاقه لنا الله ، وسخر لنا فيه القمر والشمس ، والبحار والأنهار ، ومهد لنا سبلا نسلكها ، ونزداد بفضلها قوة وعلمًا . إن التفكير في الحروف وخلقتها وخالقها ، أفعال في نفس الإنسان وعقله من التفكير في خلق السموات والأرض ، وفي اختلاف ألسنة الناس وألوانهم . لأن هذه الحروف ، تصدر عن الإنسان نفسه ، ولا تكلفه جهداً ، وهو لا يكف عن النطق بها ، وهي مع ذلك تغير أحوال الناس ، وتعلمهم ، وتزيدهم قوة ، وهي سبيل الإنسان ليقراً هذا القرآن ويفهمه .

فالقسم بالحروف في القرآن ، هو مظهر من أجل وأكبر مظاهر عظمة القرآن والإسلام معاً . فالكتاب الذي بدأ بقوله ( اقرأ ) ، هو الكتاب الجدير بأن يتضمن قسمًا من الله بالحروف . فليس ثمة سبيل للقراءة ، إلا بمعرفة هذه الحروف وتعلمها وتعليم الغير إياها .

إذن هذه الحروف قد وردت في أوائل تسع وعشرين سورة من سور القرآن الكريم - وهو عدد حروف الأبجدية كلها - ليقسم بها الله العظيم ، إظهاراً لعلو مقامها ، وكشفًا عن أنها أصل المعرفة ، وأنها باب العلم ، وهو يقسم بها ، على حقيقة عظيمة أخرى ، هي أن القرآن من عنده ، وأنه لا يتكون إلا منها ، ولا يوجد إلا بها ، ليتحقق بهذا القسم في وقت واحد نفعان جاء الإسلام ليحققهما للإنسان : أن يزيد من قدر العلم والمعرفة عنده ، وأن يدفعه إلى الاستزادة منهما .

والثاني أن هذا العالم الكبير مفاتيح السيطرة عليه والانتفاع به باعتباره مسخرًا لخدمة الإنسان المؤمن الصادق العالم ، مفاتيح هذا

العالم ، هي أمور صغيرة في رأى العين ، كالحروف . فعلى الإنسان أن يبحث عنها ، ويحيط بها ، لكي يكون قوياً قادراً ، وعالمًا مؤمنًا ، وسعيداً صالحاً . إن هذه الأحرف كما قلنا ، قادرة على أن تنقل الإنسان من الجهل إلى العلم ، ومن الظلام إلى النور ، ومن الضعف إلى القوة . فتأمل أيها الإنسان في قدرة الخالق العظيم ولا يهوانك هذا الكون الفسيح ، ولا تتضاءل أمام ضخامته ، وترامى آفاقه ، فإنك سيده بالعلم ، والعلم كما تربك الحروف ، سهل ميسور ، إن حرصت عليه ، والتمست السبيل إليه .

يتضح من كل ذلك أن التكلم في الحروف المفردة ، الواردة في تسع وعشرين موضعاً من القرآن الكريم ، فيه خير كثير ، ومنافع للناس عظيمة ، وبذلك يكون واجباً ، كما قال بذلك عدد من التابعين الصالحين ، والمفسرين السابقين ، ومع ذلك فإن حجة المذهب القائل بأن هذه الأحرف والغاية منها مما استأثر الله بعلمه ، فنقض الأمر فيها لله ، قائمة على أن الأحرف بطبيعتها لا تحمل بذاتها معنى ، فهي ليست كالأفعال والأسماء ، فالذى يقول ( ألف ) أو ( ميم ) فإنه لم يقل شيئاً ، وما دام الله تعالى ، قد اختار أن يستفتح بها عدداً في سور كتابه ، فلا يجوز لنا أن نقول إن هذه الأحرف تعنى شيئاً ما ، تدركه أفهام البشر ، لأنها في واقع الأمر ، لا تعنى شيئاً مما تعارف عليه الناس ، وكل محاولة منا ، لإسناد المعانى إليها ، هي رجم بالغيب ، لا يأمن الإنسان فيها الوقوع في الخطأ .

إلا أن القرآن في جملته وتفصيله ، خطاب موجه إلى الناس ، ليفهموه وليتدبروه ، ويعوا من حياتهم ، ومن الكون الذى يحيط بهم ، أموراً كانوا يجهلون بها يهتدوا إلى سبيل كانوا لا يفكرون فيها ، وإن العلم بهذه الأمور ، والاهتداء إلى تلك السبيل ، بمثابة الخروج من الظلام إلى النور ، ومن الضعف إلى القوة ، ومن المهالك إلى الطمأنينة والسلام . ونسبة

الاستغلاق والغموض المطلق إلى شيء في القرآن ، من لفظ أو معنى ، مما لا يتفق مع رسالة الذكر الحكيم ، ولا مع إنزاله على رسوله ، وتكليف الرسول بتبليغه ، وقد تواترت الآيات الدالة على ذلك ، ففي سورة القمر وحدها ثلاثة مواضع جاء فيها : ( ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ) كما جاء في سورة الإسراء : ( ولقد صرفنا في هذا القرآن ليدكروا ) ، وفي سورة فصلت : ( ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته ) ، وفي سورة الزخرف : ( إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون ) ، وفي سورة إبراهيم : ( وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم ) ، وفي سورة محمد : ( أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ) .

فكل ما في القرآن معروض على أفهام الناس وعقولهم ، ليحاولوا فهمه ، والانتفاع بما يفهمونه ، وهم بطبيعة الحال متفاوتون ذكاءً وصبراً ، كما تتفاوت حظوظهم من توفيق الله ، ولكنهم مهما ضؤل نصيبهم من القدرة العقلية ، ومن استطاعة الإدراك والتحصيل ، فهم مطالبون بأن يستعينوا بغيرهم ممن هم أكثر علماً ، ومن يستطيعون أن يفقهوا الناس : ( فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ) ، ( فلولوا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون ) ، فالجهاد الذي هو أعلى مراتب الإيمان ، لا يخرج إليه المسلمون كافة ، لكي يفرغ بعضهم للعلم والتفقه : ( وما كان المؤمنون لينفروا كافة ) ، وليس معنى ذلك ، أن الله لم يستأثر بعلم الكثير ( وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ) ، ولكن هذا الذي استأثر به الله تفهم ما جاء بشأنه في القرآن ، ولا يكون للمسلمين كرتانة الأعاجم ، أو من قبيل المعميات التي تكون عنصراً في أديان أخرى ، فالله تعالى قال : ( ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي ) ، فنحن نقرأ هذا الكلام فنفهم منه كل كلمة فيه ، ونفهمه جملة واحدة ، ونذكر من كلماته ومن معناه أن الله تعالى ينهانا عن الخوض في موضوع الروح ،

ولكننا نعرف كلمة الروح ومدلولها ، وإن كنا لا ندري طبيعة هذه الروح ولا كنهها .

كذلك جاء في القرآن الكريم عن الساعة ، وموعده قيامها : ( يسألك الناس عن الساعة قل إنما علمها عند الله ) ، ( إن الله عنده علم الساعة ) ، ( يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربي ) . وليس معنى هذه الآيات الصريحة البينة أن المسلمين لا يفهمون ما المقصود من الساعة ، وأنهم لا يجوز لهم أن يفهموا معناها ، وأن يشرحوا هذا المعنى لمن لا يفهمه جيداً ، فهذا كلام عربي مبين ، واضح ظاهر ، ولكن الذي لا نعلمه ، ولا يحق لنا أن نخوض فيه ، هو موعد قيام الساعة ، لأن الله قال بصراحة إنما علمها عنده وحده سبحانه وتعالى .

وكل المذاهب الأخرى في تفسير الألفاظ المفردة التي تقول إن هذه الألفاظ أجزاء من أسماء أو أفعال ، صرح ببعضها ، وأخفى بعضها الآخر ، أو أنها أسماء لله سبحانه وتعالى ، فنحن لا نقف أمامها لنناقشها واحداً واحداً ، وإنما نقول إن كل هذه الآراء لا تنفق مع روح الإسلام ، وجوهر أحكامه ، فالإسلام دين صريح واضح يصل في صراحة أحكامه ، ووضوح قواعده ، إلى أقصى الحد ، فهو خال تماماً من الألغاز والغموض ، وليس فيه علم يبذل للكافة ، وعلم يستأثر للأخبار ورجال الدين ، إنما هو علم أبوابه مفتحة لكل مجتهد ، وما دام طالب العلم يتوسل إليه بوسائله البشرية ، من الاجتهاد ، وخلص النية ، وصدق الرغبة ، وسؤال من يعلم ، والصبر على البحث وتحضير وسائله ، فله الحق في أن يؤمل في الوصول إلى مراتب العلم ، فليس في الإسلام كهنوت ، ولا هيئة تفرض رأيها على المسلمين بجاهها ، أو سلطانها ، ولو كان جاه العلم ، فلكل مسلم أن يختار لنفسه الرأي الذي يرتضيه ، ما دام قد وصل إليه بنفسه ، أو بالاستعانة بسؤال ، ممن يحق لهم النظر في أحكام الدين ، والفتوى فيها .